العدد العشرون
2003

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا

1371 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2003 مسيحي

الدكتور: مسعود عبدالله الوازني

الجدل:

الجدل ظاهرة مركوزة في طبائع النفوس منذ وعى الإنسان وجوده، وأدرك دوره في الحياة، ودعته الحاجة إلى إثبات ذاته، والتعبير عن آرائه، ونقل أفكاره إلى الآخرين ولو في أضيق حدود اتصالاته، أو رفض ما يدلي به الآخرون من آراء، وتفنيدها ولو بمزاعم لا أساس لها من سند قوي، أو منطق سليم. ويشهد على ذلك ما جرى منذ الخليقة الأولى بين ابْنَيْ آدم عليه السلام من جدل، وما انتهيا إليه في آخر المطاف من استسلام أحدهما مع وضوح حجته واستعلاء الآخر، وإصراره على فرض وجهة نظره على الرغم من تهافتها، وافتقارها إلى دليل يدعمها من نقل أو عقل. وكان يمكن أن يكون القربان الذي تقدما به

حاسماً لموضوع الخلاف، ولكنه ضاعف من حقد من لم يُتَقَبَّلْ منه، وجعله يتمادى في إصراره على فرض وجهة نظره، وواصل عناده إلى أن انتهى به المطاف أخيراً إلى ارتكاب أبشع جريمة عرفت في مطلع تاريخ البشرية وهي قتل أخيه، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]. وبذلك يمكن القول بأن الجدل وسيلة مزدوجة، يلجأ إليه أصحاب المبادئ الإنسانية في الدفاع عن آرائهم بطرح أدلة مقنعة، وهو أيضاً وسيلة الطرف المقابل كما يبدو من إعراض الجاهلين عن الحق، وجمود المقلدين وتعنت المعاندين.

وقد ظهر الجدل عند اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد عندما اجتاحت ميادين الفكر موجة من السفسطة، وراجت فيه الخطابة والمحاماة، وتضاربت فيه الآراء الفلسفية والفرضيات غير التجريبية تضارباً شديداً، ولم يكن الفكر الفلسفي قد تبلور، ولم يبلغ درجة عالية من الرشد العقلي، فكان هذا الصراع والتضارب بين المتناقضات الفلسفية سبباً لبلبلة فكرية وارتياب جذري. وكانت ملكة الجدل تغذى بما تلهم به أبطالها الجدليين من شبهات وأقيسة خاطئة، أنكروا على أساسها العالم برفض جميع الركائز الفكرية للإنسان وإنكار المحسوسات والبديهيات[2].

والمتتبع لحركة التاريخ يجد تاريخ البشرية مليئاً بمواقف تشهد على ما حاق بالبشرية، عبر مسيرتها الطويلة من مآس وأحداث مؤلمة يندى لها الجبين، جراء اختلاف وجهات النظر، وتباينها في مسائل كان «الأنا» هو الدافع الأول لرفض الكثيرين أفراداً وجماعات وشعوباً، دعوة الحق، والجمود عند ما ألفوه من تقاليد، على الرغم من أنهم لا يمتلكون سنداً قوياً في إبطال حجج الدعاة، أو منطقاً يدعم ما هم عليه، ولذا تراهم يلجأون إلى التحدي والتشويش، وهو

---

(1) المائدة: 30.

(2) فلسفتنا، محمد باقر الصدر، ط 3/ 1982 دار التعاون بيروت لبنان ص: 97 بتصرف.

منطق من لا حجة له ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[3]. وكشفت الآيات عن أساليبهم بما حكاه القرآن الكريم عن نوح عليه السلام في هذه الآية الكريمة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝5 فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝6 وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾[4] وهو الموقف نفسه الذي واجه به الكفارُ النبيَّ ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[5] إلى جانب تزويرهم الحقائق وإلقاء التبعة على المُحِقّ والانتقاص من قيمة الفكرة والاستهانة بها، والتقليل من آثارها والسخرية منها ومن الداعية: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾[6]، وإذا أعيتهم الحيلة، ورأوا أن صاحب الدعوة مُصِرٌّ على تبليغ رسالته لجأوا إلى العنف لإسكات الصوت الذي يؤرقهم، أو إلى أي أسلوب آخر تكون نتائجه التخلص من الداعية، ويزداد الأمر سوءاً وتعقيداً إذا اختلت موازين القوى بين الطرفين، وكانت مصادر القوة بيد الطرف المعاند وهو ما حدث مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذي سفه أحلام قومه في عبادتهم الأصنام، وأسقط في أيديهم عندما لم يجدوا دليلاً مقنعاً يستندون إليه، فلجؤوا إلى وسيلة أخرى للتخلص منه ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾[7]، وهو الموقف نفسه الذي كان يتخذه اليهود مع أنبيائهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[8] ولا شك في أن البشرية إذا بلغت هذا المستوى من الانحطاط، ولجأ كل فريق إلى فرض آرائه بالقوة، وأعرض عن قبول فكر

---

(3) هود: 32.

(4) نوح: 5 ـ 6.

(5) فصلت: 26.

(6) الكهف: 56.

(7) الأنبياء: 68.

(8) البقرة: 87.

الآخر، أو الاستماع إليه. ففي تلك الحالة يغادر المنطق ساحة الجدل، ويحل المراء محل التعقل، ويكون أصحاب المبادئ ودعاة الإصلاح عرضة لأشد أنواع الابتلاء، قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝4 النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝5 إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝6 وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝7 وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[9].

فالجدل كما يبدو من طبيعته له علاقة وثيقة بالأنا؛ إذ كثيراً ما يحول (الأنا) دون التسليم بأفكار الآخرين بسهولة، ولو كانت وحياً من عند الله؛ وإن كان هذا الأمر ليس على إطلاقه بالنسبة لمن سلمت فطرتهم، وزكت نفوسهم، وتخلصت من عقدة الاستعلاء أو خضعوا لتربية قويمة أدت دورها في تهذيب الأنا وكبح جماحه، وحدَّتْ من شططه، وروضته على قبول الحوار مع الآخر والاستماع إليه دون تعصب أو استعلاء على النحو الذي كان بين الصحابة رضي الله عنهم، ومما يروى في ذلك: «أن ابن مسعود، على مودته لعمر بن الخطاب رضي الله عنه قد كانت له معه أكثر من مائة مسألة خلافية، وكذلك حصل بين أبي بكر وعمر بخصوص حرب الردة خلاف، ومع ذلك فإن ما جرى بينهما من جدل لم يزدهم إلا مودة وتقديراً واحتراماً متبادلاً»[10].

والله سبحانه وتعالى، وهو أعلم بخبايا النفس، يقول: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[11]، فكان من بين أسباب رفضهم الاحتجاج لما ألفوه من عادات وتقاليد بالجدل عناداً ومكابرة، وهو ما عبرت عنه هذه الآية الكريمة ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[12].

ونظراً لغزارة مادة الجدل واتساع ساحاته، وتنوع موضوعاته، فإن الحديث لن يتجاوز المسائل الكلامية. وقبل ذلك لا مندوحة من الحديث عن مفهوم الجدل لغة واصطلاحاً، وإن كنا لا نطمح كثيراً في الظفر بمعان جديدة

---

(9) البروج: 4 ـ 8.

(10) الجدل المذهبي في الفكر الإسلام ـ مصدر سابق ص: 39 بتصرف.

(11) الكهف: 55.

(12) الكهف: 54.

يمكن أن تضاف إلى ما فهمه العرب منذ البداية عن مفهوم الجدل، بمقدار ما في تلك التعريفات من غموض ولبس، وقصور في تحديد معنى دقيق للجدل يكون جامعاً مانعاً.

وإذا كان هنالك من قيمة لاستعراض تلك التعريفات، فهو يكمن في اطلاعنا على الفترة التاريخية التي ساد فيها ولوع اللغويين والأصوليين والمناطقة بضبط مدلولات الألفاظ بمصطلحات وتعريفات، وهي الفترة التي ظهر فيها تدوين المعاجم، وترجمة المنطق الأرسطي، وهي فترة متأخرة دون شك. وأما قبل ذلك فإن دلالة لفظ الجدل على المعنى المتبادر إلى الذهن لغة يكاد يتضمن المعنى نفسه اصطلاحاً، ويدل على وضوحه، وروده في القرآن الكريم تسعاً وعشرين مرة، منها ثماني عشرة مرة في السور المكية، وإحدى عشرة مرة في السور المدنية، وهي كلها تكشف عن عمق الأساليب الجدلية في النفس البشرية، سواء أكان ذلك «بمعنى الاستعطاف، أم بمعنى الشك أم النقاش أم العناد أم المراء أم النزاع أم الإغراء، وهي كلها حالات انفعالية للإنسان الذي يريد أن يقر رأياً أو يدفعه أو يشكك فيه»[13]. وقد جاء الخطاب في كثير من آيات القرآن الكريم قائماً على الجدل في صورته الحوارية المباشرة التي لا تخلو من الترهيب والترغيب أو الوعد والوعيد، وحتى السخرية، مع اختلاف أسلوبه ومعانيه باختلاف المخاطبين، وهو في كل ذلك لا يستهدف من ضروب الجدل إبطال حجج الجاحدين بمقدار ما يستهدف إزالة الغشاوة عن المؤمنين، والدفاع العقلي عمن آمن، بل لم يكن يهمه إيمان من آمن وكفر من كفر، فإن ذلك متروك لاختيار الإنسان نفسه ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[14] بالقدر الذي يهمه توضيح الحقيقة كاملة، مع تزويده المؤمنين بالحجج للدفاع عن دينهم داخلياً ونفسياً ضد التشكيك الذي كان يوجه إلى الإسلام والعدوان الذي كان يلقاه النبي ﷺ، من خصومه داخلياً وخارجياً[15]،

(13) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق ص: 27.

(14) الكهف: 69.

(15) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق ص: 35 بتصرف.

مع تزويد المؤمنين بالطريقة المنهجية في خطاب الآخرين، ورفع الغشاوة عن أعينهم، والرين عن قلوبهم بمنطق سديد ولغة هادئة وحوار منصف بناء، ثم إن لفظ الجدل قد ورد على لسان كعب بن مالك، بالمعاني نفسها التي استعرضها القرآن الكريم، وهو ما يدل على وضوحه عند العرب دون أن تكون هنالك حاجة، كما يقال، لمعجم تاريخي يتتبع تطور هذه الكلمة، وفي هذا قيل: إن كعب بن مالك قد اعتذر للنبي ﷺ عن تخلفه في غزوة تبوك فقال: «إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر. لقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني يوشكن الله أن يسخطك علي. وإن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عقبى الله عزّ وجلّ».

وحتى لا يحيد الموضوع عن منهجية البحث فلا مندوحة بعد هذا التمهيد من تناول مفهوم الجدل لغة واصطلاحاً. وإن كان فيما سبق من تقديم ما يدل على وضوحه.

وقبل أن نشير هنا إلى ما ورد في تعريف الجدل لغة واصطلاحاً نؤكد أن لفظ الجدل غني في مادته بكثرة مترادفاته التي حفلت بها المصنفات ومعاجم الجدل والمناظرة، وهذا يدل على كثرة تداول المسلمين الأغلب لهذا المنهج الجدلي، والتزامهم به في تحصيل المعرفة وتبليغها، ومن بين تلك المترادفات على سبيل المثال لا الحصر: المناظرة والمحاورة والمخاطبة والمجادلة والمحاجة والمناقشة والمنازعة والمذاكرة والمباحثة والمجالسة والمفاوضة والمراجعة والمطارحة والمساجلة والمعارضة والمناقضة والمداولة والمداخلة[16].

وأما لغة: فقد ورد لفظ الجدل بمعنى تردد الكلام بين الخصمين إذا قصد كل واحد منهما إحكام قوله ليدفع به قول صاحبه، فهو مأخوذ من الإحكام،

(16) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن ط 1/ 1987 المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع ص: 64 بتصرف.

يقال دِرعٌ مجدولة إذا كانت محكمة النسيج، وحبل مجدول إذا كان محكم الفتل، وزمام جديل إذا كان مستحكم النسج والفتل، ويقال أيضاً قصر مجدّل إذا كان حصيناً محكماً بناؤه[17]. والجدالة وجه الأرض إذا كان صلباً[18]. وورد أيضاً بمعنى «اللدد في الخصومة والقدرة عليها»[19]. والذي يبدو من خلال هذين التعريفين أنهما لا يحكيان سوى صورة واحدة من صور الجدل، أما الصورة المقابلة التي تؤدي ـ عادة ـ إلى الكشف عن الحقيقة عن طريق ترتيب الأدلة واستنباط البراهين، فلا نكاد نظفر بشيء منها في حدود هذا التعريف. ثم ألا ترى أن هذين التعريفين لا يعرضان لشيء مما ورد في الآية الكريمة من اللجوء إلى أرقى الأساليب. وأجدى الطرق في الجدال ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[20].

وورد أيضاً في تعريف الجدل بمعنى «مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة، والمناظرة، والمخاصمة»[21]. وفي هذا التعريف تجاوز للحقيقة، وبخاصة عندما لا تكون عند الآخر حجة يقارع بها خصمه، ويدافع بها عن وجهة نظره، بل من بين صوره ما يعد إفحاماً وتبكيتاً للصوت المعارض. قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[22]. وتبدو صورة التبكيت أكثر وضوحاً في نصاعة حجة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وانتصاره في

---

(17) الكافية في الجدل: الجويني عبد الملك، تحقيق د. فوقية حسين محمود ط 1/ 1399هـ/ 1979 مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ص: 20.

(18) الفقيه والمتفقه، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ط 2/ 1400هـ ـ 1980م دار الكتب العلمية بيروت لبنان جـ 1/ 229.

(19) القاموس المحيط الفيروز آبادي ط/ 1371هـ ـ 1952م مصطفى البابي الحلبي القاهرة مادة جدل.

(20) العنكبوت: 64.

(21) النهاية: ابن الأثير 1/ 247.

(22) غافر: 35.

الجدل الذي دار بينه وبين الملك الذي ادعى الألوهية والتحكم في مصائر الناس حتى بلغ به الأمر أن ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[23].

وعند طاش كبرى زادة أنَّ الجدل: علم باحث عن الطرق التي يُقْتَدَر بها على إبرام أي وضع أريد، وعلى هدم أي وضع كان، وهذا من فروع علم النظر ومبنى علم الخلاف مأخوذ من الجدل الذي هو أحد مباحث المنطق، لكنه خص بالعلوم الدينية، ومبادئه بعضها مبينة في علم النظر، وبعضها خطابية، وبعضها أمور عادية، وله استمداد من علم المناظرة.

والغرض منه: تحصيل مَلَكَة الهدم والإبرام، وفوائده كثيرة في الأحكام العملية والعلمية من جهة الإلزام على المخالفين ودفع شكوكهم»[24].

ويغلب على هذا التعريف الجانب الوصفي، ولا أعتقد أن الجدل بهذا الغموض حتى يتطلب مثل هذا الإطناب. وأما قوله يُقْتَدر به على البناء والهدم من غير أن يحدد الأمور التي يطالها الهدم، وينزه الأمور المنطقية والعقائد الصحيحة، فيه خَلْطٌ يخرج التعريف عن حده المنطقي.

وأما الجرجاني فقد ساق ثلاثة تعريفات: اثنين منها أجراهما مجرى العلوم النقلية فقال في أحدهما: «دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة» وقال في الآخر: «عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها»[25].

وكلا التعريفين تنقصهما الدقة في بيان وجه الحقيقة، إذ ليس كل جدل مراء أو خصومة، وإلا لما ورد الأمر به في القرآن الكريم ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[26]. والموعظة ذاتها تنضوي

---

(23) البقرة: 258.

(24) مفتاح السعادة: طاش كبرى زاده ط 1/ 1405 ـ 1985 دار الكتب العلمية بيروت لبنان جـ 1/ 281.

(25) التعريفات: الجرجاني ط 1/ الدار التونسية تونس ص: 41.

(26) النحل: 125.

بعض مسائلها تحت موضوع الجدل، كما أن القيد الوارد في الآية فيه تسديد لمن يجادل غيره بمراعاة أدب الخطاب.

وأما التعريف الثالث فقد أجراه مجرى التعريفات المنطقية فقال: «هو القياس المؤلف من المشهورات والمُسَلَّمات؛ والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان»[27]. ولا أرى معنى لإلزام الخصم إذا كان الحق إلى جانبه، ولو استخدم كلمة تعليمه إذا كان قاصراً، موضع إفحامه لكانت أكثر مناسبة في مثل هذا المقام، وقيل في تعريف الجدل إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على التدافع والتنافي بالعبارة، أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة[28].

وهذا التعريف يوحي هو الآخر بأن الجدل يحمل معنى التدافع والتنافي، في حين يمكن أن يكون الجدل بأسلوب حواري يهدف إلى تجلية الحقيقة، ورفع الغموض القائم. وقيل إنه «حوار كلامي يتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر، ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رجَّحَتْ لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الانتقادات التي يوجهها الطرف الآخر على أدلته، أو من خلال الأدلة التي ينير بها بعض الألفاظ التي كانت غامضة عليه[29]، وهذا أيضاً يعد وصفاً لطرائق الجدل أقرب منه إلى التعريف الاصطلاحي الذي ينبغي أن تراعى فيه الدقة والاختصار.

وعرَّف ابن عاشور الجدل وهو من المعاصرين بقوله:

إن «الجدل المنازعة بمعارضة القول؛ أي هو الكلام الذي يحاول به إبطال ما في كلام المخاطب من رأي، بالحجة أو بالإقناع أو بالباطل»[30]. ولا شك أن

---

(27) التعريفات: مصدر سابق 41.

(28) الكافية في الجدل مصدر سابق ص: 21.

(29) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني ط 2/ 1401 ـ 1981 دار القلم دمشق بيروت ص: 371.

(30) التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور 15/ 348.

في جعله مترادف الجدل المنازعة بعض التجاوز، إذ ليس كل جدل يؤدي إلى إثارة النزاع أو إبطال رأي الآخر.

والذي يمكن قوله بعد استعراض هذه التعريفات أنها جميعاً تحكى صوراً حدثت في مراحل تاريخية متأخرة، سادت فيها اللجاجة والمراء، وتحولت فيه المسائل الفرعية إلى مرتكزات وأصول وثوابت، ولم يلتزم فيه المتناظران شروط الجدل وقواعده التي حرصت الآية الكريمة على مراعاتها، إذ استثنيا ما أورده الميداني من توضيحه لمعاني الجدل.

في حين لو اقتصر التعريف على استنباط ما ورد في الآيات الكريمة، التي قيدت الجدل بالتي هي أحسن، وبما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[31] لكان التعريف بمعنى «تداول الأفكار بأسلوب حواري منصف» أقرب إلى الدقة في ضبط أسس الجدل، وأكثر شمولاً وتحقيقاً لما تتطلبه مثل هذه المواقف من مراعاة أدب التواصل الإنساني حتى مع من يجهل أدب الخطاب، وتهيئة الظروف الملائمة التي تساعد على نجاح الدعوة وتيسير مهمة الداعية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[32] وقال تعالى في معرض مدح النبي ﷺ والإشارة بأدبه الرفيع: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[33].

وأما عن علاقة علم الجدل بعلم المناظرة وعلم الخلاف فيغلب على الظن أن هذه الألفاظ تتقاسم مساحة فكرية واحدة، ويبدو ذلك بوضوح في قولهم وأما المناظرة فهي المجادلة، فناظَره جادَلَه، ويقال ناظره مناظرةً صار نظيراً له؛ أي مماثلاً، والتناظر التراوض في الأمر[34]، والمجادلة تكون في أي مجال فكري: سواء أكان سياسياً أم عقدياً أم اجتماعياً أم ثقافياً، وفي الفكر الإسلامي أكثرها في

(31) سبأ: 24.

(32) الفرقان: 63.

(33) آل عمران: 159.

(34) القاموس المحيط الفيروزآباي 1/ 150.

المسائل العقدية والفقهية، والمناظرة أيضاً تنحو هذا المنحى، بحسب ما عرفها به ابن خلدون بأنها «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات. . .»[35] ونلمس هذه الصلة أيضاً فيما ورد على لسان حاجي خليفة في قوله: «لا يبعد أن يقال: إن علم الجدل هو علم المناظرة؛ لأن المآل منهما واحد، إلا أن الجدل أخصُّ منه»[36].

ولم يفرق التهانوي بين الجدل والمناظرة، وهو ما يتضح من قوله: «المجادلة عند أهل المناظرة لإظهار الصواب وإلزام الخصم. . . وعقب في النهاية على هذا التداخل بقوله: قد يكون السائل والمجيب كلاهما مجادلين[37]. وعد طاش كبرى زاده علم المناظرة من العلوم العقلية، وعرفه بقوله: علم باحث عن أحوال المتخاصمين ليكون ترتيب البحث بينهما على وجه الصواب حتى يظهر الحق بينهما»[38].

والذي يبدو من هذا التعريف أن التداخل بين علم الجدل والمناظرة صريح وواضح، وإن لم ترد في عبارته كلمة الجدل، وعندما تطرق إلى علم الخلاف حاول أن يفرق بينه وبين الجدل، غير أن عبارته لم تسعفه في إبراز هذا الفارق، ويبدو ذلك في قوله: «علم الخلاف: الجدل الواقع بين أصحاب المذاهب الفرعية. والفرق بينه وبين علم الجدل بالمادة والصورة. فإن الجدل بحث عن مواد الأدلة الخلافية والخلاف بحث عن صورها»[39].

وأما من جعل الجدل أحد فروع المناظرات، وقصره على علم الأصول دون غيره، كما فعل عبد المجيد تركي، الذي قال عن المناظرات: لفظة جامعة تشمل ثلاثة أنواع: إن كان في أصول الفقه سمي جدلاً، وإن كان في فروع الفقه سمي خلافيات، وإن كان في شروط المناظرة وقواعدها لتجرىٰ على أصول

---

(35) المقدمة ابن خلدون ط 2/ 1984. الدار التونسية للنشر تونس جـ 2/ 557.

(36) كشف الظنون 1/ 580.

(37) كشاف اصطلاحات الفنون ط 1/ 1373 ـ 1961، المكتبة الإسلامية بيروت 1/ 242.

(38) مفتاح السعادة، مصدر سابق 1/ 426 و1/ 253.

(39) المصدر السابق 1/ 426 و1/ 253 بتصرف.

سليمة وفي جو مناسب للمقام سمي آداب البحث[40]... ثم قال: وأما الجدل فكل ما قيل عن الخلافيات يصح فيه مع التفريق بين مادتيهما؛ إذ الخلافيات تتعلق بفروع الفقه، بينما يمس الجدل الفقه[41]. فهو قولٌ مرسَلٌ على عواهنه، لا يستند إلى دليل يمكن أن يعتد به، ولا أدري كيف أسقط دور الجدل وكذلك المناظرة في علم الكلام والعقائد، وشبيه بهذا ما وقع فيه الوضيفي في توضيح معاني المدافعة الذي جاء فيه: «هنالك مدافعة تسمى مناظرة، ومدافعة تسمى جدلاً، وتتحدد المدافعة بالمناظرة أو الجدل اعتماداً على قصد المدافع؛ فإن كان المدافع قصده الحق سميت مدافعته مناظرة، وإن كان قصده إسكات الخصم سميت مدافعته جدلاً»[42]. ولا يزيد هذا القول عن كونه نوعاً من التحكم لا يتفق مع ما دعا إليه القرآن من الجدل بالتي هي أحسن.

ويبدو أن من ذهب إلى هذه الآراء لم يقف على تعريف إمام الحرمين للجدل الذي قال فيه: «لا فرق بين المناظرة والجدال والمجادلة والجدل في عرف العلماء بالأصول والفروع، وإن فرق بين الجدل والمناظرة على طريقة اللغة؛ وذلك أن الجدل في اللغة مشتق من غير ما اشتق منه النظر»[43].

وأما عن العلاقة بين الحوار والمناظرة، فهناك من يرى أن المحاورة تستند إلى نماذج تنتمي إلى المجال التداولي، ويجوز لها أن تسلك سبل الاستدلال بما هو أوسع وأغنى، وانتهى إلى التفريق بينها وبين المناظرة فذكر: أن المناظرة تمتاز عن الحوار بكونها تقيم تقابلاً يتواجه فيه المعارض والمعترض، ولا يمنع اختصاص كل منهما فيه بحقوق وواجبات معينة من حضورهما معاً في إنشاء نص المناظرة منطوقاً ومفهوماً. ومع أنه حاول أن يبرز هذا الفارق إلا أنه ظل

---

(40) كتاب المعونة في الجدل أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي، تحقيق عبد المجيد التركي ط 1/ 1408 ـ 1988 دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ص: 60.

(41) المصدر السابق ص: 62.

(42) المناظرة في أصول التشريع الإسلامي، مصطفى الوضيفي ط 1/ 1419هـ ـ 1998م وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المملكة المغربية ص: 9.

(43) الكافية في الجدل الجويني إمام الحرمين، تحقيق د. فوقية حسين محمود ط 1/ 1399هـ ـ 1979م مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ص: 19.

أسيراً لكلمة الحوار، فلم يجد مفراً من التعبير بها عند تتمة كلامه؛ وكان لعرض المناظرة أو اعتراضه أثر هادف ومشروع في اعتقادات من يحاوره[44]. وهو ما يجعلنا نرجح تقاسم هذه الدلالات لمساحة فكرية واحدة ما لم يخالطها المراء الذي ذمه العلماء، وفسروه بجحود الحق بعد ظهوره. وكان السلف الصالح يشيحون عن المراء حتى إنَّ سلمان بن يسار كان يغادر المسجد النبوي إذا حصل فيه لغط ومراء. وقال عنه الشافعي: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن، وذكر التهانوي أن المجادلة التي حرمها الفقهاء هي التي تحمل المعنى اللغوي وهو المنازعة والمخاصمة[45].

وقد تأثر الصحابة ومن جاء بعدهم من أعلام الفكر الإسلامي وأئمته بأسلوب النبي ﷺ في دعوته وجدله لأهل الكتاب وغيرهم، واستناروا بمنهج القرآن الكريم؛ فسلكوا إلى الحق السبيل الموصل لطلب الحق وإقراره والتقريب بين وجهات النظر. فجاء جدلهم ومناظراتهم وحوارهم معبراً عن روح التسامح بين المتناظرين، وإبداء الرغبة المشتركة في إظهار الحق والاقتناع بالنتيجة التي ينتهي إليها أي منهما من غير اعتراض، ما دامت موافقة للصواب.

وكانوا يختلفون، غير أن اختلافهم لم يكن يخرج بهم عن جوهر الدين، لما كانوا يرون في إجراء الجدل من إثراء النظر وتيسير إجرائه في الواقع، وكانوا يتخيرون وضوح العبارة وسلامة المنطق وأدب الخطاب، وحتى النبر الصوتي في مباشرة المعترض؛ لأن نبرات الصوت قد تُحوِّل الأمر إلى صخب ومراء، معتمدين في ذلك كله على قوة الإسلام ونصاعة حجته وعبقرية اللغة العربية، فجاء جدلهم خالياً من التعصب المفضي إلى العناد والمكابرة، وتسامت نفوسهم إلى أقصى مراتب الإيمان، مع سَعة في المعرفة والحذق لقواعد الاستدلال والبرهنة، إلى الحد الذي جعلهم يدركون «أن الاختلاف في المقالة والرأي لا يدعو إلى التنكر لحقوق الأخلاق. وأن الحرية بين المتخالفين هي أساس ركين

(44) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام مصدر سابق ص: 40، 41 بتصرف.

(45) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق 194 بتصرف.

لبناء الفكر الحر، ولبلورة رشد العقل، حيث يبدو السلوك الإنساني معبراً عن القيمة المثالية للأفكار المطلقة»[46].

وكان همهم في إقرار الحقائق كمن يَنْشُد ضالته، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يديه أو على يد من يساعده، ويرى رفيقه معيناً له لا خصماً، ويشكره إذا عرفه الخطأ، وأظهر له الحق[47]. وكانوا يتبادلون الاحترام والتقدير، وينبذون التعصب، ولا يُحَكِّمون الهوى والتشهي، بل يلجأون إلى أصول الشريعة وأدلتها. وكانت الأجواء نفسها التي يجري فيها الجدل أجواء بِرّ وتقوى.

مرتبة الاحتجاج بالجدل

لقد سبقت الإشارة إلى ظهور علم الجدل في الدراسات الفلسفية عند اليونان، وكان المنطق من بين الميادين التي استعان بها الجدل في الاحتجاج لبعض القضايا العقلية، غير أن ذلك لم يكن بالصورة التي كان عليها الجدل عند المسلمين الذين استطاعوا أن يمزجوا بين المنطق والجدل في الاستدلال على قضايا من صميم المنطق نفسه، وذهبوا إلى أبعد من ذلك فحرروا المنطق من تلك التراكيب والعبارات واليقين النظري؛ فلم يعد مجرد لعبة منطقية أو بلاغية تستخدم البراهين التي لا طائل من ورائها، وكشفوا عن جوانب الضعف في الاستدلال بالمنطق، وتجنب بعضهم استعماله، ومن بينهم الغزالي الذي لم يستخدم كلمة المنطق في أسماء كتبه؛ من بينها معيار العلم، ومحك النظر والمستصفى والقسطاس ومقاصد الفلاسفة. وألف السيوطي كتاباً تحت عنوان «صَوْن المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام» وردّ ابن تيمية بإسهاب على المنطقيين، وبنى أمثال هؤلاء جدلهم على اليقين العملي لا اليقين النظري، وأصبح تأثيره واضحاً في ميدان الحوار والمناظرة، ولم يعد المنطق في صورته

(46) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق ص: 77.

(47) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ط/ د. ت. بيروت جـ 1/ 43.

التي كان عليها عند اليونان حبيس القول والقرطاس. وسواء ظهر الجدل عند اليونان أو عند غيرهم، فإن الجدل من العلوم الحكمية المركوزة في طبائع النفوس. وكانت كلمة جدل متداولة في لسان العرب أنفسهم قبل نزول القرآن الكريم، ثم تكرر ورود كلمة الجدل في القرآن الكريم أكثر من مرة كما سبق أن أشرت، وهنالك آيات كثيرة جاءت معتمدة أسلوب الجدل أساساً للحوار والخطاب الذي يتخلله الوعد والوعيد، والترهيب والترغيب، وحتى السخرية. وصورت الإنسان في حيرة دائبة يطلب الحقيقة ويسعى جاهداً للتأكد من تصوراته ومرئياته بالسؤال والمجادلة، ويبدو ذلك واضحاً في الآيات التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾[48] من نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾[49] وقوله: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[50] ومن المرجح أن الجدل كان يستخدم بمعاني قريبة من تلك المعاني، بعد أن دعت الحاجة إلى استخدامه في الدفاع عن صحة العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة وعلى أتباع المذاهب المنحرفة والتيارات الفكرية المعادية.

وهذا ما يجعلنا نؤكد: أن الجدل كان معروفاً لدى المسلمين منذ فترة مبكرة، ثم ازدادات الحاجة إليه بعد واقعة صفين وانقسام المسلمين إلى شيع وأحزاب، وقد استدل العلماء على حجية الجدل بالأمر الوارد في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وبما ورد في السنة في الحديث الذي روي عن أبي هريرة من «أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، وإني أنكرته، فقال له رسول الله ﷺ: ألديك إبل؟ قال: «نعم، قال: هل فيها من أورق؟ قال: إن فيها لورقاً. قال: فأنى ترى ذلك جاءها؟ قال: يا رسول الله

(48) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق ص: 52 بتصرف.

(49) الأنعام: 46.

(50) الإسراء: 50 ـ 51.

عرق نزعها، قال: لعل ذلك عرق نزعه، ولم يرخص له في الانتفاء منه»[51].

وقد عقب أبو الوليد الباجي معلقاً: «هذا حقيقة الجدال ونهاية تبيين الاستدلال من رسول الله ﷺ وهو المعصوم الذي يجب علينا اتباعه وامتثال أوامره»[52].

وقد ظهر علم الجدل أيضاً على يد الصحابة، وهناك من اعتبر أن ما كان يجري بينهم من تشاور في بعض الأحكام التي لم ينزل فيها وحي صريح أصلاً من الجدل والمناظرة التي كان القصد منها المباحثة عن الحق ليتضح، وهذا القصد نفسه هو الذي كان يهدف إليه الصحابة[53]. ثم اتسع نطاقه وازدهر في مجالس من جاء بعدهم من مؤسسي المذاهب العقدية والمدارس الفقهية، ثم مجالس أتباعهم من المجتهدين المنتسبين، وكان كل ذلك يجري في ضوء الاحترام المتبادل ونبذ التعصب للرأي ومصادرة فكر الآخر.

ونظراً لكثرة النصوص الواردة في الجدل فقد عده بعض العلماء فرضاً كفائياً. ورتب أبو بكر بن العربي الإشبيلي حكمه على ما يجر إليه الجدل من مصالح فقال: إما أن يكون فرض كفاية، وإما أن يكون فرض عين، وبخاصة إذا لم يكن هنالك من يقوم بهذه المهمة سوى من يعرف عن نفسه صلاحية النظر والاستقلال بالجدل، أو يعرف الناس ذلك منه؛ لما في ذلك من نصرة الدين وإقامة الحجة على المخالفين[54].

أهمية الجدل

تطرق الجدل إلى المسائل الكلامية التي كانت مبعث تفكير عميق، وانحصرت، بشكل واضح، في مسائل الذات والأسماء والصفات والاستواء

(51) أخرجه البخاري كتاب الاعتصام باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبين.

(52) المنهاج في ترتيب الحجاج: أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ـ تحقيق عبد المجيد تركي ط 1/ 1978 ـ باريس، ص 8.

(53) إحياء علوم الدين مصدر سابق 1/ 46.

(54) أحكام القرآن ط 1/ 1957 دار إحياء الكتب العربية مصر جـ 1/ 292 بتصرف.

وكلام الله وخلق القرآن الكريم ورؤية الله والنبوات وأفعال العباد، ولم يترك أي جانب من الجوانب التي تتطلب البرهنة على ما يليق بالذات من كمال وتنزيه، والنبوات من صدق وأمانة، إلا خاضها معتمداً في ذلك على الأدلة العقلية المقنعة، ونفي ما يثيره الأدعياء من شكوك، ودفع ما قد يعتري المرء من شبهات، وأجاب بوضوح عن كل التساؤلات؛ وكان هدفه في كل ذلك ترسيخ العقائد الإيمانية، وتصويب أحكام العقل، والنهوض بالفكر، ونشر الوعي، والتقريب بين وجهات النظر، ودعوة المخالفين إلى الإيمان بعقيدة التوحيد، والكشف عما الْتبس في مسائل العقيدة من ضلالات، على أهل الكتاب وغيرهم من دهريين ومشركين وصابئة، ومن أتباع النِّحَل المختلفة من مجوس وبراهمة وبوذيين.

كما اهتم الجدل بالرد على مثيري الفتن من الذين لا هم لهم سوى إثارة الشبه بقصد زعزعة عقيدة الإيمان، وإيجاد حالة من التردد والشك بين محدودي الفكر والثقافة. وقد ظهرت آثار الجدل والمناظرات في تحرير العقل من التسليم الساذج والتقليد الأعمى، وفي تعريف المقلدين بالمدارك وأسباب الاختلاف بما كان يتيحه من حوار علمي هادف فيما اختلفت فيه وجهات النظر، وتباينت فيه الآراء.

ونظراً لحاجة الأمة الإسلامية لمن ينافح عن عقائدها، ويرد على ما يثيره أعداؤها من شكوك، فقد عبر العلماء عن أهمية الجدل، ومن بينهم ابن خلدون الذي أكد أهميته بقوله: «هو، لعمري، علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم، ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه»[55]، وعده أبو الوليد الباجي «من أرفع العلوم قدراً، وأعظمها شأناً؛ لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال، وتمييز الحق من المحال»[56].

وتؤكد الوثائق التاريخية أن حركة الجدل قد نشطت بشكل ملحوظ في عهد الدولة العباسية، وكانت لها مجالس في كل من العراق ومصر، وبلغت

(55) المقدمة، مصدر سابق ـ جـ 2/ 555.

(56) المنهاج في ترتيب الحجاج ـ مصدر سابق ص: 8.

أوجها في الأندلس؛ لكثرة اليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الديانات والنِّحَل، ونتج عن ذلك ما يطلق عليه في عصرنا بالدراسات المقارنة.

وقد ذكر أحمد بن محمد بن سعدي أنه زار بغداد، وشهد هنالك مجالس الجدل والحجاج بين أهل الكلام من المذاهب الإسلامية وبين غيرهم. وقد حضر تلك المجالس مرتين ثم توقف، ومن بين ما رآه فيها أنها كانت تجمع بين الفرق كلها: «المسلمين من أهل السنة والبدعة، والكفار والمجوس والدهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر أجناس الكفر. وكان لكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ويجادل عنه... وإذا غص المجلس بأهله ورأوا أنه لم يبق أحد ينتظرونه، قال قائل من الكفار: قد اجتمعتم للمناظرة والجدل، فلا يحتج علينا المسلمون بكتابهم ولا بقول نبيهم، فإنا لا نصدق بذلك ولا نُقِرُّ به، وإنما نتناظر بحجج العقل، وما يحتمله النظر والقياس»[57].

ويذكر ابن سعدي أنه لما رأى ذلك طلب مجلساً آخر من مجالس الكلام فأشير عليه بمكان آخر، فلما ذهب إليه وجده لا يختلف عن غيره، فقاطع تلك المجالس ولم يعد إليها، ولما ذكر ذلك لأبي محمد عبد اللّه بن أبي زيد القيرواني لم يجز تلك المجالس إلا مع أهل البدع من منتحلي الإسلام[58].

ولم يُسَلِّم الأستاذ إبراهيم شبوح بهذه الأحكام، بل نوه بتلك المجالس وعدها «من مفاخر التاريخ الإنساني في حرية الرأي، ونبذ الإكراه العقائدي»[59].

كما عقب الدكتور عارف ثامر هو الآخر على ما كان يجري من مناظرات وجدل فقال: وهذا النقاش يعطينا درساً عن الحرية الفكرية التي كانت سائدة في

---

(57) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ط 1/ 1966 الدار المصرية للتأليف والنشر. مصر ص: 109.

(58) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق ص: 78، 79 بتصرف.

(59) المصدر السابق ص: 79.

أوساط العلماء في ذلك العصر البعيد، وعن انفتاح صدورهم لتقبل النقد البناء، والخضوع إلى الحقيقة والواقع[60].

ولا أحد ينكر عليهما اعترافهما بالقيمة العلمية للجدل المنصف، والحوار البناء في تحرير العقل من التقليد الأعمى، والتحجر العقدي، والتعصب المذهبي بهدف الوصول إلى الكلمة السواء وذلك: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[61]. إلى جانب ما في ذلك من الأعذار لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[62] بشرط ألا يمس الجدل جوهر العقيدة أو يشكك في نبوة محمد ﷺ بحجة النقد التاريخي للقضايا والنصوص.

ومع أهمية الجدل وقيمته العلمية في إقرار الحقائق، والكشف عن الغموض والملابسات التي تكتنف بعض القضايا، فهنالك من درس الجدل الأرسطي، وتأثر به، ولم يكن قد اطلع على الجدل عند المسلمين، أو كان اطلاعه محدوداً، أو من الجاحدين لأصالة الفكر الإسلامي، فادعى أن المسلمين قد أخذوا الجدل عن تراث الفكر اليوناني، وخاضوا فيه على أنه وسيلة توصل إلى معارف ظنية، فوقع بذلك في أخطاء كبرى؛ لتجاهله، من ناحية، صلة الجدل بمكونات الفطرة الإنسانية، ودور الصحابة أنفسهم منذ بداية نشاطهم الفكري في هذا المجال. وكانت لهم مواقف في تحصيل المعارف نابعة من نتاج قرائحهم، وممارساتهم للجدل لغة واصطلاحاً ومنهجاً قبل ترجمة التراث اليوناني أو الاطلاع عليه. بل لم يعهد في تاريخ الصحابة أنهم كانوا يسلمون بالمسائل التي كانت تعرض عليهم دون تمحيص، على خلاف ما كان يجري عند غيرهم من أهل الكتاب والمشركين الذين «اتبعوا أسلافهم وأحبارهم ورهبانهم على عمى، ولم يلتفتوا إلى ما يعرضه الإسلام من أدلة، وأثنى على

---

(60) المناظرات: فخر الدين الرازي تحقيق د. عارف ثامر ط 1/ 1412هـ 1992م مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت لبنان ص 15.

(61) الأنفال: 42.

(62) الأعراف: 164.

الصحابة الذين آمنوا بهذا الدين بعد أن اقتنعوا بصدق نبوة محمد ﷺ»[63].

وأما الخطأ الآخر فقد كان نتيجة ما نقلوه أيضاً عن أرسطوا الذي كان يرى أن الجدل وسيلة توصل إلى معارف لا تمثل سوى مرتبة ظنية من حيث اليقين. غير أنه إذا جاز أن ينطبق هذا التصور على الفكر الفلسفي عند اليونان، فإن الجدل عند المسلمين كان قائماً، منذ البداية، في أسلوب تحقيقه وأسس بنائه على اليقين، لاعتماده على الحجج البرهانية والجدلية كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وعلى استقلاله عن كل مدد يخرج عن علوم القرآن والسنة، وبعده أيضاً عن أي خلل يمكن أن يؤثر على عملية الوصول إلى اليقين[64].

وإن كان هذا لا ينطبق على جميع صور الجدل والمجالات التي خاض فيها، فكثيراً ما كان التعصب للرأي والأنا والتقليد يحول دون التسليم بالحقائق، وقبول وجهة نظر الآخر. وما مشكلة خلق القرآن والكلام ورؤية البارئ والإمامة وغيرها من المسائل الفقهية التي خاض فيها الجدل، إلا إحدى تلك الصور التي تندرج تحت مفهوم الجدل، ولكنها كانت عند أهل العناد لا ترتقي إلى مستوى الجدل الذي يحق الحق ويكشف عن الباطل قبل أن تكون من الجدل المذموم. ومع ذلك لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان ما للجدل من قيمة علمية في الكشف عن الملابسات، وإبراز الحقائق مع مرور الزمن، وحتى إذا وجد من تعصب لرأيه من المعاندين، أو لرأي إمامه في فترة تاريخية معينة، فقد تزول تلك العقد من الأجيال اللاحقة. وما مشكلة خلق القرآن عنا ببعيد، فقد كانت في فترة تاريخية معينة مصدر فتنة وشقاق واضطهاد لفريق من العلماء، ثم حسمت في فترة تاريخية لاحقة على أيدي علماء أجلاء أجادوا فن الجدل، وأحكموا طرقه، ومن ذلك ما ورد على لسان محمد بن سحنون «أنه سأل أبا سليمان النحوي وهو شيخ على مذهب المعتزلة فقال ابن سحنون: تقول أيها الشيخ أو تسمع؟ فقال الشيخ: قل يا بني، فقال ابن سحنون: أرأيت كل مخلوق هل يذل لخالقه؟

---

(63) مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي ـ تحقيق/ د. عبد الصبور شاهين ـ ط 2/ 1414هـ 1994 دار الغرب الإسلامي ـ بيروت لبنان ـ ص 32.

(64) لمزيد الاطلاع انظر في هذا الكافية في الجدل مصدر سابق ص: 27 و53 من القسم الدراسي.

فسكت الشيخ... وسئل ابن سحنون عن جواب سؤاله فقال: إن قال: كل مخلوق يذل لخالقه فقد كفر؛ لأنه جعل القرآن ذليلاً على مذهبه الذي يرى القرآن مخلوقاً. والله يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[65] وإن قال: إنه لا يذل فقد رجع إلى مذهب أهل السنة الذي لا يرى خلق القرآن»[66]. وشبيه بهذه القضية ما ورد على لسان ابن الحداد في سؤاله ابن الأشج المعتزلي عن كلام الله: «ممن سمع موسى الكلام؟ فقال ابن الأشج: من الشجرة، فقال له ابن الحداد: من ورقها أو من لحائها؟ فسكت ابن الأشج... وسئل أبو عثمان بن الحداد عما قصده من سؤاله فقال: كل من زعم أن موسى سمع من الشجرة على الحقيقة فقد كفر، لأنه يعني أن الله لم يكلم موسى ولم يفضله بكلامه[67].

ثم تتابع الجدل في هذه القضية حتى حسمت بشكل أكثر وضوحاً على لسان أسد بن الفرات الذي كان يقول: «ويح لأهل البدع، هلكت هوالكهم، يزعمون أن الله عزّ وجل، خلق كلاماً، يقول ذلك الكلام المخلوق[68]: ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾[69].

وبذلك يكون الجدل قد تدخل في جسم العديد من القضايا، وأفحم المتعصبين لأحكام السابقين بعد أن كشف عن تهافتها، وأماط اللثام عن ضعف سندها، فتخلوا عن تلك الأفكار وعادوا إلى وفاق.

وكما حقق علماء المسلمين براعة فائقة في فن الجدل، فحسموا بذلك قضايا شائكة مثل قضية خلق القرآن، فقد حققوا نجاحاً كبيراً في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وتمكنوا من نشر أفكارهم وإقناع الخصوم في المحاورات التي كانت تجري بينهم وبين أتباع الملل والنِّحَل المختلفة، فدخل الكثيرون على

---

(65) فصلت: 41 ـ 42.

(66) الجدل المذهبي في الإسلام مصدر سابق ص: 145.

(67) المصدر السابق ص: 146.

(68) المصدر السابق ص: 148.

(69) طه: 14.

أيديهم الإسلام، وأفحموا كل من حاول الطعن في الإسلام سواء فيما كان يجري من حوار مباشر أم عن طريق تلك الكتابات المغرضة، وعلى سبيل المثال فقد روي أن صنيع بن الطلاع ناظر نصرانياً بقرطبة فقال له النصراني: ما تقول في عيسى؟ فقال له ابن الطلاع: لعلك تريد المبشر بمحمد؟ فانقطع النصراني؛ لأنه رأى إن أنكر له هذا الوصف كَذَّب إنجيله، وكفر بعيسى على الحقيقة؛ لأنه إنما أقر بعيسى آخر، وإن أقر لزمه الدخول في الإسلام، لما وجب عليه عند إيمانه بعيسى من الإيمان بما بشر به وإلا فليس بمؤمن[70]. كما يروى أن الباقلاني حقق نجاحاً منقطع النظير في (مناظراته ومحاوراته التي أجراها في القسطنطينية بين يدي ملك الروم في محافل النصرانية، وأفحم فيها بطارقتهم، وذلك سنة نيف وثمانين وثلاثمائة، حيث كان الباقلاني موفداً من قبل عضد الدولة البويهي، وبعد المناظرات نصح أحد البطارقة ملك الروم بأن يلاطف الباقلاني، ويقضي حاجته، ويبادر بإخراجه عن بلده، اتقاءً للفتنة على النصرانية منه، فعمل الملك بنصيحته وأحسن جواب عضد الدولة فيما طلبه، كما أحسن هداياه وسرح عدة من أسرى المسلمين الذين كانوا تحت يده»[71]. فكان علماء الأمة الإسلامية كما قال فيهم رسول الله ﷺ، في دفاعهم عن الإسلام في وجه كل التيارات التي حاولت النيل منه «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[72].

حقول الجدل المعرفية:

يعد الجدل ميداناً فسيحاً لنشاط حركة الفكر وازدهارها، وحقلاً واسعاً لإثارة جملة من التساؤلات، وطرح الإشكالات، ووسيلة لسبر الآراء والبحث

(70) المناظرات في أصول التشريع الإسلامي. مصطفى الوظيفي ط 1/ 1419 ـ 1998 وزارة الأوقاف والشؤون الدينية المملكة المغربية ص: 23.

(71) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق ص: 180 ـ 181.

(72) صحيح البخاري باب شهادات العدول ورواه ابن حنبل 2/ 185 والدارمي مقدمة 34 وابن ماجه مقدمة 22.

عن الأدلة المؤيدة أو النافية، ومحاولة استنباطها وبيان درجة صدقها قوة وضعاً، ومعرفة مآخذ الباحثين، والوقوف على ما استدلوا به من حجج وبراهين في تأييد اتجاهات فكرية معينة، وتوهين بعضها الآخر، والنظر في القضايا التي يطرحها الآخر، ومحاولة الرد عليها؛ لبيان الحق من الباطل، ودحض تلك التأويلات المجحفة والشبهات المثيرة للجدل التي حاول البعض إسقاطها على الفكر الإسلامي «وهي لا تزيد عن كونها فكراً ارتجاعياً باطنياً، يمثل في أعماقه رِدَّة شرقية، ونكوصاً إلى ذكريات وأساطير خرافية والارتكان إلى دين قديم»[73].

وقد تناول الدكتور عبد الكريم غلاب، بإيجاز، الأحداث التي كانت وراء حركة الجدل، معتمداً في ذلك على ما ورد في القرآن الكريم من إشارات فقال: إن «الأحداث التي مرت بها الدعوة الإسلامية، منذ زمن نوح حتى إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، لم تكن أحداثاً سهلة يسيرة كما تصورها كتب التاريخ وكتب السير التي تعنى بظاهر الحدث فحسب، ولكنها كانت عميقة عمق النفس البشرية، وعمق الصراع العقدي، بكل إرثه الثقيل الآتي من الفكر أو العادة أو الخرافة أو التقليد، أو التشبث بما في ذلك من المنفعة المادية أو المعنوية. وكذلك عمق التفاعل في المصير التاريخي، كما كانت تمثله شخصية الفرد والعائلة والقبيلة والدولة.

والقرآن الكريم يصور هذا العمق، لا ككتاب تاريخ، ولكن ككتاب عقيدة... يكشف السر الحقيقي عن عمق النفسية البشرية وهي تؤمن، وهي تنافق، وهي تكفر، وهي تعاند في كفرها وتجادل.

ومن خلال هذا الكشف تستطيع أن تعرف أكثر من التاريخ عن هذه الحركة النفسية العميقة التي حركت التاريخ في أخطر فتراته، وهي فترات الإيمان والكفر[74].

---

(73) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق موضوع مقارنة منهجية في تاريخية الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي للأستاذ الدكتور علي الشابي ص: 18 بتصرف.

(74) صراع المذهب والعقيدة في القرآن الكريم ط 1/ 1973 دار الكتاب اللبناني بيروت ص: 304 ـ 305.

وتبعاً لذلك يمكن القول: بأن الجدل كانت له آثار واضحة في شتى مصادر الفكر العلمية والأدبية، وحتى اللغة ذاتها التي دافع عنها في وجه الباطنية الذين حاولوا أن يؤولوا ألفاظها تأويلات بعيدة، ويخضعوها إلى ما ورد لديهم من أوهام، وهو نوع من الإسقاطات أدت إلى جعل اللغة عبارة عن أشلاء ممزقة، وإلى نوع من الإيهام بالإطلاق فلم تعد لدى هؤلاء أداة تَوَاصُل مع الحقيقة، ويمكن ملاحظة ذلك في الفكر الارتجاعي الأسطوري والإشاري اللذَيْن أديا إلى نفي اللغة ثم النص الديني والعقلي معاً[75].

كما ظهر الجدل، بشكل أكثر عمقاً ووضوحاً، في «علم الكلام والفقه والأصول والمنطق التي كانت مواد لمحاربة الفلاسفة والحد من نشاطهم»[76] والرد على أهل الزيغ والضلال ومثيري الفتن في تلك العهود المبكرة من تاريخ أمتنا الإسلامية.

وعلى الرغم من اتساع ساحة الجدل، فهنالك من قصر الجدل على علم الأصول. وربما الذي أوقع أمثال هؤلاء في هذا الحكم، يرجع إلى ما فهمه بعضهم من اتفاق الأصولي والجدلي في البحث عن الدليل الذي ينطلق منه كل منهما أثناء التمثيل للقاعدة المراد إثباتها. والصواب أن الأصولي غني عن كثرة التمثيل بالجزئيات، لأن بحثه غالباً ينطلق من ذاته، فلا تتشعب عليه المسائل حتى يحتاج إلى سَوْق الأمثلة الجزئية، بخلاف الجدلي الذي تبدو حاجته أثناء المنازعة إلى التمثيل بالجزئيات أكثر إلحاحاً، لأنه كلما أتى المستدل بدليل عارضه السائل، ومن ثم تطول المنازعة ويحتاج كل منهما إلى إيراد الأمثلة الجزئية، حتى ظن البعض أن علم الجدل كعلم الفقه وليس الأمر كذلك؛[77] لأن مجالات علم الخلاف محدودة؛ لتعلقها بفروع الفقه، حتى إن ابن الصباغ

---

(75) لمزيد الاطلاع انظر في هذا الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي بحث الدكتور علي الشابي «مقاربة منهجية في تاريخية الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي ص: 9 ـ 26.

(76) المناظرات فخر الدين الرازي تحقيق د. عارف ثامر ط 1/ 1412 ـ 1992 مؤسسة عز الدين بيروت لبنان ص: 99.

(77) لمزيد الاطلاع انظر الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق ص: 171 ـ 172.

كان يقول: عن أبي إسحاق الشيرازي الذي كان يحفظ مسائل الخلاف كما يحفظ فاتحة الكتاب: «إذا اصطلح الشافعي وأبو حنيفة ذهب علم أبي إسحاق الشيرازي، يعني أن علمه هو مسائل الخلاف بينهما فإذا اتفقا ارتفع»[78]، وهذا يجعل علم الجدل أوسع مجالاً بعد أن اقتصر علم الخلاف على فروع الفقه، وأصبح هذا المصطلح، إذا أطلق، لا يعني سوى تلك المسائل الخلافية.

وحتى لا يحرم القارئ من الاطلاع، ولو على جزئية من جزئيات هذا العلم، نسوق على سبيل المثال، ما ورد «في وصف الشيء بغيره والكلام عليه. من نحو ما جاء في المكره على الأكل في الصوم: كما لا يفسد الصوم سهوه لا يفسد إذا كان مغلوباً عليه، كالقيء، فيقول: ليس في كونه مغلوباً بأكثر من أنه معذور، والعذر لا يمنع الإفطار، بدليل الفطر لأجل المرض والسفر، وليس هذا إبدالاً لمعنى الإكراه؛ لأن عذر السفر يبيح مع الاختيار، لا غلبة وكذلك المرض والإكراه غلبةً وقهراً، بدليل أن المريض لو استقى لأجل المرض أفطر، ولو غلبه القيء لم يفطر»[79].

وأما فيما يتصل بالمنهج الذي سلكه علم الجدل فهو كغيره من العلوم، له منهج خاص يتسق مع اتجاهه القائم على الدليل التداولي أو السجالي في معالجة القضايا إثباتاً ونفياً، ولكنه، في الوقت نفسه، سلك طريقتين: طريقة البزدوي حتى صار يعرف بها وهي تعتمد على «الأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال» وطريقة يتربع على عرشها العميدي وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم... ووضع في ذلك كتاباً يسمى بالإرشاد وسلك من جاء بعده من المتأخرين كالنسفي وغير طريقته حتى أصبحت تعرف باسمه ثم كثرت في ضوء تلك الطريقة التآليف»[80].

---

(78) المعونة في الجدل أبو إسحاق الفيروز آبادي الشيرازي تحقيق عبد المجيد تركي ط 1/ 1408 ـ 1988 دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان ص: 51.

(79) كتاب الجدل على طريقة الفقهاء أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي ط 1/ د.ت دار المصري للطباعة القاهرة ص: 69.

(80) المقدمة ابن خلدون مصدر سابق جـ 2/ 556 بتصرف.

شروط الجدل وآدابه:

لقد أولى علماء المسلمين الجدل عناية خاصة، وأظهروا اهتماماً كبيراً وإقبالاً شديداً على ميادين نشاطه، وأنزلوه منزلة الفروض؛ لشدة حاجتهم إليه في نشر الفكر الإسلامي والإقناع به والدفاع عن أصوله ومبادئه وقيمه، وأحكام سلوكه، وتبصير الآخرين مكانة الإسلام وحاجة البشرية إليه، وطرح الأدلة عسى أن يكتشف أحد الطرفين ضعف حجته وقوة أدلة الطرف الآخر فيتخلى عن وجهة نظره السابقة، ويعود إلى الحق، كل ذلك وفق التداول البريء الخالي من الانفعال والانتصار للذات «صيانة للجدل من أن يتحول إلى مماراة بعيدة عن نشدان الحقيقة أو مشاحنات أنانية ومشاتمات ومغالطات ونحو ذلك مما يفسد القلوب ويهيج النفوس ويورث التعصب، ولا يوصل إلى الحقيقة»[81]، وفرقوا بين أنواع الجدل وأساليبه فأثنوا على الجدل المحمود الذي يستهدف الحق ويسلم بوجهة النظر التي يفرضها الدليل القاطع، وأكدوا على ضرورة النهوض به «لإقامة الحجة على الملحدين وعلى المبتدعة، إذ هو ضرب من الجهاد لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[82] واعتبر ابن قيم الجوزية الجدل واجباً إذا ظهرت مصلحته، واعتبره الشوكاني من أعظم القرب التي تقرب إلى الله زلفى»[83] وحذروا من الجدل المذموم بجميع أنواعه سواء ما كان منه، لدفع الحق، أم تحقيق العناد، أم لتلبيس الحق بالباطل، أم لما لا يطلب منه تعرف ولا تقرب، أم للماراة وطلب الجاه والتقدم، إلى غير ذلك من الوجوه المنهي عنها، وهي التي نص الله سبحانه وتعالى في كتابه على تحريمها؛ فقال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[84] وفي مثله ورد في الحديث الشريف: «دع المراء وإن كنت محقاً» وهذا فيمن خرج عن

---

(81) ضوابط المعرفة مصدر سابق ص: 371.

(82) صحيح أبي داود.

(83) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق ص: 192 ـ 193 بتصرف.

(84) الزخرف: 58.

أدب الجدل، أو لم يقطع اللجاج بعد ظهور الحق كدأب الكفار مع الرسل»[85].

ونظراً لما يمثله الجدل من بين الفروض من قيمة في الإقناع أو الاقتناع. فقد توسع العلماء في وضع جملة شروط وقواعد تحكم مناهجه، وتحدد أساليبه، وتضبط مساره يمكن إيجازها في نقاط محددة أهمها: إبداء الرغبة في البحث عن الحقيقة مع التسليم بوجهة النظر المغايرة إذا ظهرت الحقيقة جلية واضحة، وأن يبتعد كل طرف عن إيذاء الطرف الآخر سواء بالانتقاص من قدره أم الحط من كرامته أم الاستهانة بأفكاره سيراً على القاعدة المشهورة: (إن كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل)، ونصوا على ألاّ يكون المجادل من الملتزمين بفكرة سابقة والرافضين لأي فكرة مغايرة لما التزم به. أو ممن يتعمد طمس الحقائق والتضليل والمراوغة، أو يأتي بكلام يناقض بعضه بعضاً[86] اعتقاداً منهم بأن الجدل إذا دخل هذا النفق المظلم فلن تجني منه الأطراف المتجادلة سوى القطيعة والنفرة، كل ذلك حتى لا يحيد الجدل عن الهدف الذي رسمه الإسلام وأرشد إليه القرآن الكريم وعلم الله به نبيه ﷺ الطريقة التي ينبغي أن يخاطب بها من هم على غير دين الإسلام فقال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[87].

ولا شك أن ما ورد في هذه الآية الكريمة يدل على وجوب التزام الأدب والتحلي بالصبر حتى في المسائل التي تعد من أخطر المسائل على الإطلاق لعلاقتها «بتوحيد الخالق أو الإشراك به؛ وهما أمران على طرفي نقيض لا لقاء بينهما بحال من الأحوال، وهما يدوران حول أصل عظيم من أصول العقيدة الدينية، كان من الأمور البديهية أن الهداية في أحدهما إذ هو الحق، وأن الضلال المبين في الآخر إذ هو الباطل»[88] «وفي هذا غاية التخلي عن التعصب لأمر

---

(85) الكافية في الجدل مصدر سابق ص: 23.

(86) لمزيد الاطلاع انظر: المصدر السابق موضوع البحث والجدل بالتي هي أحسن ص: 371 وما بعدها.

(87) سبأ: 24.

(88) المصدر السابق ص: 374.

سابق، وكمال إعلان الرغبة بنشدان الحقيقة أنى كانت»[89]، وإذا كان هذا في موضوع العقائد فما بالك بغيره من مسائل الفروع؟

وتبعاً لذلك فقد أدرك العلماء أنهم مطالبون، بل كل مسلم ـ بأن يسلكوا الأدب الرفيع في إيصال الحقيقة إلى الآخرين، وأن يتجنبوا الأساليب المنفرة التي تقود عادة إلى ردة الفعل والعنف التزاماً بما ورد أيضاً من توجيه رباني حكيم في هذه الآية الكريمة ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[90] وإذا كان هذا ما ينبغي أن تكون عليه أخلاق المسلم حتى مع خصوم دينه والمخالفين لعقيدته فما بالك مع إخوانه المؤمنين؟

وقد عقد إمام الحرمين فصلاً كاملاً في آداب الجدل حث فيه على الخشوع والتواضع والانقياد للحق والإقبال على المجادل والاستماع إليه وترك مقاطعته، وألا يُقَوِّله ما لم يَقُل، وأن يكون غرض المجادل التقرب إلى الله[91] وهي في مجموعها تلتقي مع قواعد الجدل وشروطه عند غيره من العلماء الذين حذروا من الجدل المذموم، وحثوا على الجدل المحمود لأهميته في إظهار الحق، ونفي الباطل لقوله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[92] وهي المعاني نفسها التي خص بها أبو الوليد الباجي الجدل، وعقد لها باباً طالب فيه من أراد الدخول في الجدل أن يدخل فيه «على جد واجتهاد، ويفرغ له قلبه، ويبذل له وسعه، لأن ذلك كله يعينه على إدراك ما يقصده، ويتوقر في جلوسه ولا ينزعج من مكانه... ولا يكثر الصياح حتى لا يشق على نفسه... ولا يخفى صوته جداً... ويقبل على خصمه، فإنه أحسن في الأدب، ويحسن الاستماع إلى كلامه... ولا يثق بقوته وضعف خصمه، فإن ذلك يفضي إلى الضعف

---

(89) المصدر السابق ص: 374.

(90) الأنعام: 108.

(91) انظر: الكافية في الجدل مصدر سابق، فصل في آداب الجدل ص: 529 وما بعدها.

(92) صحيح البخاري شهادات 5 وانظر: أيضاً باب التناوب في العلم، علم 27 وابن حنبل جـ 2/ 185، والدارمي مقدمة 34 وابن ماجه مقدمة 22 وقد ورد الحديث في باب شهادات العدول.

والانقطاع، ولا يداخله في نوبته، ويصبر له حتى يفرغ من كلامه... ويتجنب إظهار العجب من كلام خصمه والتشنيع عليه في جداله... ولا يتكلم على ما لم يقع له العلم به من جهته... ولا يناظر في حال الجوع والعطش، ولا في حال الخوف والغضب، ولا في حال يتغير فيها عن طبعه، ولا يتكلم في مجلس تأخذه فيه هيبة، ولا بحضرة من يزري بكلامه... ولا يناظر من لا ينصف من نفسه، ولا من عادته التسفه في الكلام، ولا من عادته التفظيع... فإن ظهر له من خصمه شيء من ذلك نهاه عنه بلطف ورفق، فإن اللطف في الأمور أنفع والرفق أنجع، فإن لم ينته عن ذلك أعرض عن كلامه، ولم يقابله في أفعاله، وإذا بان له الحق أذعن له، وانقاد إليه، فإن الغرض بالنظر إصابة الحق»[93].

وهذه الصفات التي أكد عليها الباجي كفيلة بالارتقاء بالجدل إلى أعلى مراتب الأدب وأسمى صفات الإيمان ولو تقيد بها علماء المسلمين لما وجد الخلاف بين المسلمين بالصورة التي تبدو لنا اليوم.

الجدل المذهبي:

قام الجدل في مراحله الأولى على حرية الفكر وجديته، وساعد على ازدهاره قبول علماء المسلمين مبدأ الحوار البناء والتفاهم الرشيد والتواصل الإنساني الملتزم لأدب الحوار مع الآخر، فكان بذلك سنداً قوياً لدعم الفكر الإسلامي وتطويره وسلاحاً حاداً في مواجهة الفلسفات المعادية للدين متجاوزاً بذلك التعصب المذهبي والجدل السفسطائي العقيم الذي ظهر على يد فلاسفة اليونان. ولم يحِدْ طيلة تلك المراحل المبكرة عن ضوابط المعرفة التي وضعها علماء المسلمين ولم تعصف به رياح التعصب المذهبي كما عصفت باليهودية والمسيحية والنِّحَل الأخرى من قبل وذلك بفضل ما أبداه المسلمون من حرص شديد على توجيه الجدل بما يخدم طبيعة البحث، ويقوي أواصر العلاقات، وفي هذه المعاني ورد «أن البيروني سأل ابن سينا الفيلسوف عن قضايا فأجاب عنها بأجوبة اعترض عنها البيروني ونعته بصفات تقلل من مكانته، فرد بالنيابة

(93) المنهاج في ترتيب الحجاج مصدر سابق ص: 9 ـ 10.

عنه تلميذه أبو سعيد أحمد بن علي المعصومي قائلاً: لو اخترت يا أبا ريحان لمخاطبة الحكيم ابن سينا غير تلك الألفاظ لكان أَلْيَقَ بالعقل والعلم، ولم يرتض البيهقي هو الآخر ما صدر عن البيروني من طعن وتجريح فقال: ليس الذم والتثريب والتهجين من دأب الحكماء المبرزين، بل تقرير الحق، ومن قرر الحق استغنى عن تهجين أهل الباطل»[94].

وذكر محمد بن سحنون أن والده دخل عليه وهو يؤلف كتاباً في تحريم النبيذ فقال له: يا بني إنك ترد على أهل العراق، ولهم لطافة أذهان وألسنة حداد فإياك أن يسبق قلمك ما تعتذر منه»[95] وهو الأسلوب نفسه الذي لجأ إليه الغزالي في حث معاصريه على السير على المنهج القويم الذي كان عليه السلف... من القصد الحسن والأساليب العلمية والخلق القويم[96].

ثم قيل إن الجدل بعد أن شهد تلك المراحل المشرقة من تاريخ الفكر الإسلامي، بدأ يتأثر بالمناخ السياسي شيئاً فشيئاً، ويحيد عن منهجه، وينحو منحىً جديداً لم يعهده من قبل، وترك طريقته المثلى في «صوغ المعاني وترتيب الحجج واستنباط البراهين لإظهار الحقيقة وتحقيق التواصل إلى مجادلة يقصد من ورائها[97] إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل»[98]، وحتى اللغة وهي أداة تواصل تحولت إلى أشلاء ممزقة لم تعد أداة تواصل[99] فأدى ذلك إلى الاعتداء على الحريات وإهراق الدماء وتخريب البيوت... وطال ذلك حتى المستوى الكتابي فأدى إلى حرق الكثير من كنوز المعرفة وهي أكبر نقمة وقع فيها العالم الإسلامي بتنكره لنعمة العقل المتمثلة في حث القرآن الكريم الإنسان على الفهم والنظر والتبصر وتتبع آيات الله في كل

(94) المناظرات مصدر سابق ص: 12 بتصرف.
(95) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق ص: 55.
(96) المصدر السابق ص: 191.
(97) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق ص: 28.
(98) إحياء علوم الدين مصدر سابق جـ 3/ 117.
(99) الجدل المذهبي في الفكر الإسلامي مصدر سابق ص: 18.

مظهر من مظاهر الخليقة وأخذ العالم الإسلامي يتوغل في نفق التقليد والاقتصار على الرواية والاقتباس والشطحات الصوفية والخرافات بما يشبه الأساطير[100]، وقد وصف الدكتور عبد المجيد بن حمده الجدل في القرن الثالث الهجري فقال عنه في إفريقية: «إنه كان في حالة مد وجزر بخصوص الحرية والتضييق فكان تعددياً ثم أصبح أحادياً تعسفياً، ثم أحادياً معتدلاً فتعددياً متحرراً ثم عاد أحادياً عنيفاً»[101] وهو ما جعل «بعض العلماء يحتاطون للأمر ويتوجسون خيفة من أساليب المعارضة وينهون عنه ويوصدون بابه حماية للذريعة وقطعاً لأسباب الشر التي منها ما أصبح الجدل يورثه من الوحشة والعداوة وقد وصل الأمر ببعضهم إلى اعتباره من أشراط الساعة وارتفاع العلم»[102].

وأياً كان الأمر فإن المسؤولية لا تقع على الجدل وإن جاز القول بأنه كغيره من العلوم قد تمتد إليه الأيدي السوية وتتناوله بالإثراء العقول المتفتحة فتتحقق الأبعاد الفكرية المرجوة منه، وقد تتقاعس الأيدي وتتحجر العقول فتكون الانتكاسة، وهذا ما حدث بالنسبة للجدل فإن التعصب المذهبي قد حال دون فتح باب الجدل وهو شأن المقلدين جميعاً لا يسمحون بإصلاح تصوراتهم مهما كانت خاطئة.

---

(100) المصدر السابق ص: 68 و193 بتصرف.

(101) المصدر السابق: ص 150 بتصرف.

(102) المصدر السابق ص: 193.